

فصول

مجلة النقد الأدبي

كتابخانه و مركز تحقيق و رسالتي
بنياد و ايرت المعارف اسلامي



مركز تحقيق و رسالتي و مركز
مطبعه و نشر اسلامي

اتجاهات

النقد العربي الحديث

تصدر كل ثلاثة اشهر

• المجلد التاسع • العددان الثالث والرابع • فبراير ١٩٩١

٣
٤

فصول

مجلة النقد الأدبي

تصدر عن: الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
سَمير سرحان

مستشارو التحرير

زكى نجيب محمود
سهير القلماوى
شوقي ضيف
عبد الحميد يونس
عبد القادر القط
مجدى وهبة
مطفى سويف
نجيب محفوظ
يحيى حقي

رئيس التحرير

عزالدين إسماعيل

نائب رئيس التحرير

صلاح فضل

مدير التحرير

اعتدال عثمان

المشرف الفني

سعيد المسيرى

السكرتارية الفنية

احمد مجاهد
عبد الناصر حسن
محمد غيث
وليد منير



مركز تنمية كويتية للتعليم الإلكتروني

الإشتراكات من الخارج
من سنة (أربعة أعداد) ١٥ دولاراً للأفراد - ٢٤ دولاراً للهيئات -
مضاف إليها
مصاريف البريد (البلاد العربية - ما يعادل ٤ دولارات) (أمريكا
وأوروبا - ١٥ دولاراً)
ترسل الاشتراكات على العنوان التالي :

● مجلة فصول

الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع كورنيش النيل - بولاق - القاهرة ج. م. ع.
تلفون المجلة ٧٧٥٠٠٠ - ٧٧٥١٠٩ - ٧٧٥٢٢٨ - ٧٦٥١٣٦
الإعلانات تنقل عليها مع إدارة المجلة أو مندوبيها المسمين

● الأسعار في البلاد العربية

الكويت دينار واحد - الخليج العربي ٢٠ ريالاً قطرياً - البحرين
٢٠٠٠ فلس - العراق دينار وربع - لبنان ٢٥٠٠
ليرة - الأردن ١٦٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالاً - السودان ١٠٠
لش - تونس ٤٠٠٠ مليم - الجزائر ٢٤ ديناراً - المغرب ٦٠
درهماً - اليمن ٤٥ ريال - ليبيا دينار وربع - الامارات ٢٠ درهم -
سلطنة عمان ٢٠٠٠ بيذة - غزة ٢٠٠ سنت -

● الأسعار في البلاد الأجنبية :

لندن ٤٠٠ بنس - نيويورك ١٥٠٠ سنت -

الإشتراكات :

الإشتراكات من الداخل

من سنة (أربعة أعداد)
ترسل الاشتراكات بحوالة بريدية حكومية

- أمانييل رئيس التحرير ٤
- هذا العدد التحرير ٥
- البلاغة واللغة والمبلاغة الجديد
- ١٣ قراءة في تراث العقاد النقدي مصطفى ناصف
- أحمد ضيف ، المحاولات الباكورة
- ٣٦ في النقد الأدبي الحديث هل شلتش
- التزعة الجمالية الإنسانية
- ٥٦ في نظرية محمد مندور النقدية فاروق العُمراني
- القراءة النقدية التقليدية من خلال الفلسفة الوضعية
- ٦٧ عند زكي نجيب محمود سامي منير عامر
- ٨١ حالة الإبداع وتجربة الناقد الأدبي محمد فخر أحمد
- الشعراء العقاد : تأملات في التجربة النقدية عند صلاح عبد الصبور ، أنونيس
- ٩١ كمال أبو حبيب عبد العزيز الخفاج
- المنهج المعجزة في قراءة التراث الشعري :
- ١٠٩ البهوية نموذجاً محمد الناصر العجيمي
- البهوية التكوينية في الدراسات الأدبية في المغرب محمد حرماش
- ١٢١ الاتجاه النفسي في دراسة الأدب وتلقاه عصام بيبي
- ١٣٣ اللسانيات العربية وقراءة النص الأدبي - قول في نقد اللغات
- ١٤٩ ود مكاشفة الآخر سعد مصلوح
- ١٥٣ شهادات النقاد

● الواقع الأدبي

● تجربة نقدية

- خصائص الخطاب السردي لدى نجيب محفوظ - دراسة في زقاق المدق عبد الملك مرتاض ٢٠٧
- متابعات
- والشجار الأسمت
- ٢٢١ معنى الإيقاع ، وإيقاع المعنى وليد منير
- عرض كتاب
- قراءة ، مفهوم النص
- ٢٢٧ لنصر حامد أبو زيد حسن حنفي
- مع المجلات العربية عرض : عبد الناصر حسن ٢٢٨
- رسائل جامعية
- جدلية اللغة والحديث في الدراما عرض : وليد منير ٢٤٤
- دور يحيى الطاهر عبد الله في القصة القصيرة المصرية (١٩٦٥ - ١٩٨١) عرض : حسين حمودة ٢٤٧
- مجلة ، الطفلة ، (١٩٣٩ - ١٩٥٢)
- ٢٥٠ دراسة تاريخية وفنية عرض : عزة بدر
- وثائق
- نصوص من النقد العربي الحديث (الأدب العربي المقارن - المتوازن الأول والنص الأول) توليف وتعليق : حسام الخطيب ٢٥٧
- (الطبعة الأولى من كتاب شعر حافظ ، إبراهيم عبد القادر المازني) تقديم : مدحت الجبار ٢٧٦
- نصوص من النقد العربي الحديث (جنوى الشعر وجدوى النقد ١٩٣٣) تأليف : ت . س . إيهود ٣٠٩
- ترجمة : ماهر شفيق فريد
- (الأسلوبية الوصفية أو أسلوبية التعبير) تأليف : بيير جيرو ٣٢٢
- ترجمة : منذر عباسي
- كشف المجلد التاسع التحرير ٣٢٩
- This Issue ترجمة : ماهر شفيق فريد 3

اتجاهات

النقد العربي الحديث

اللسانيات العربية وقراءة النص الأدبي

قول في « نقد الذات » و « مكاشفة الآخر »

سعد مصلوح

١ - فاتحة .

أتى على النص الأدبي في العربية المعاصرة زمان ترقشت فيه أخطر قضاياها مناقشة انبثت فيها الصلة أو كادت بالمنظور اللساني ، بل إن الجماهرة الغالبة من الدارسين لم تكذب تحمس وجوداً للضرورة منهجية ملجئة إلى مثل هذا النوع من النظر وربما كان موضع المعجب في ذلكم أن كثيراً من مشكلات النص الأدبي التي كانت مناط خلاف بين النقاد هي ذات جوهر لغوي ، على نحو لا يتصور معه إمكان فحصها على غير أساس من رؤية لسانية مستتيرة ومنضبطة . ولست أدري كيف استطاع أهل النقد أن يخوضوا معاركهم حول الأشكال الشعرية الجديدة ، ووظيفة الفن ، ولغة العمل الأدبي ، في غيبة التأسيس اللساني لهذه المشكلات ، مع أن مثل هذا التأسيس هو شرط ماهية لسلامة الأحكام وصحة النظر .

بيد أن غياب المنظور اللساني في كل ما سلف يقابله الآن ما يشبه أن يكون إفاقة من سبات منهجي عميق ، يحاول فيه كثير من النقاد تعويض ما فرطوا في جنب اللسانيات ، إذ استبان كثير منهم أنهم كادوا أن يهدروا كينونة النص وجوهر الأدبية فيه ، وجعلوا منه خادماً وتابعاً لكل علم ، ولم يُسَلِّموا بأهليته في أن يكون موضعاً للنظر العلمي لذاته ، بل إنهم لم يقدرُوا الأمور حق قدرها حين مدوا أبصارهم إلى مجالات معرفية قصية ، هي على أهميتها لاتغنى عنهم من العلم شيئاً إن تجاوزوا عطاء اللسانيات الحديثة ومنجزاتها في دراسة النص الأدبي ؛ فهي على كل حال أوسع به رَجْماً وأعظم له جدوى .

ونحن معنيون في هذه الدراسة بأمور : أولها رصد أسباب القطيعة غير المقصودة بيقين بين أهل النظر من النقاد واللسانيين العرب ، وحفظ كلا الحزبين من المسئولية عن ترسيخ هذه القطيعة . وثانيها : تحديد مظاهر التقارب بين الفريقين ، والكشف عن مواطن الخلل فيها أنتجه ذلك من نقد لسان ، أو نقد يسترشد في ممارسته بالتحليل اللساني وينتكيء على تصورات ومقولاته . وثالثها : استشراف مستقبل هذه الحركة ، وتحديد الكيفيات التي تعالج بها مواطن الخلل ، وتنشط بها من عقلا لتتحقق غاياتها العلمية في خدمة الإبداع الأدبي في العربية . وتتنظم هذه الغايات الثلاث في بابين من القول ؛ ينصرف الأول إلى « نقد الذات » ؛ أي معالجة المسألة في جانب « اللسانيات » ، وهي المجال الذي نشرف بالاشتغال به والانتباه إليه ؛ والثاني إلى « مكاشفة الآخر » ؛ ونعني به فريق النقاد الذي يجمعنا وإياه النص الأدبي ؛ بما هو همٌّ مشترك لكلينا ، وإن اختلفت بيننا الغايات والوسائل .

ونحسب أن الأمور باتت في حاجة إلى هذا « النقد » وإلى تلك « المكاشفة » ، بعد أن بلغت بنا مبلغاً لا يحسن السكوت عليه . ولئن اتسم القول هنا بشيء لا مفر منه من الحدة والصراحة ، إننا على يقين - إن شاء الله - من صدق الباعث عليه ، وشرف المقصود به . ومن ثم فنحن نرجو ألا يقع هذا القول من أي من الفريقين موقعاً لا نرضاه ؛ فالخير أردنا ، وعلى الله قصد السبيل .

٢ - القول في « نقد الذات » .

إذا كانت جميع العلوم الإنسانية في أوروبا قد انتجعت في نهاية الأمر حقل اللسانيات ، وأقرت لها بفضل السبق إلى دخول فردوس العلوم المضطربة ، واستعانت بصورتها ومناهجها وطرق البحث فيها لتدقيق معالجاتها لما تصدى لدراسته من ظواهر - فإن أمر القول في العلاقة بين اللسانيات والنقد الأدبي في العربية يختلف اختلافا ظاهرا عنه في غيرها من اللغات . ذلك بأن تشكل اللسانيات الحديثة ونموها في أوروبا كان نتاج تطور طبيعي في سياق ثقافي نشط وحافل بالحوار العلمي والجدل الفكري المنتج بين العلوم . وصحيح أن اللسانيات الأوروبية قد أعرضت ونأت بجانبها - غالباً - عن دراسة النص الأدبي في أوليات النشأة ؛ لكنها ما إن فرغت من هموم النشأة والتأسيس وترسيخ استقلالها حتى استجابت لتطلعات العلوم الإنسانية الأخرى ، وانجذبت بكليتها للإسهام في معالجة المشكلات التي هي موضع النظر المشترك بينها وبين تلك العلوم ، وعلى رأسها مشكلات النص الأدبي . ومن ثم فإن الفجوة التي فصلت بين اللسانيات البنوية الوصفية والنقد الأدبي أول الأمر لم يقدر لها أن تدوم طويلاً ؛ كما أن عقد الصلة بين هذين المجالين من مجالات المعرفة قد تم في تطور طبيعي كان من الممكن التنبؤ به سلفاً . أما عندنا نحن - أهل العربية نقاداً ولسانيين - فقد كنا دائماً نجاه التأثير الأوربي في موقع المنفعل والمستهلك وليس الفاعل المنتج . وقد سبق تأثر النقاد بالتيارات والمذاهب الأدبية في أوروبا قيام اللسانيات الحديثة في بلاد العرب بزمن طويل ؛ ثم إن هذا التأثير النقدي اتخذ سبيله في مجرى الثقافة العربية بمعزل عن اللسانيات وهمومها العلمية الضيقة إبان النشأة ، حتى إننا لا نكاد نسمع هذه العلاقة إلا أصداء خافتة تتردد في كتابات بعض النقاد من جيل الرواد .

أما اللسانيات الحديثة ، فستصلت أسباب الباحثين العرب بها بعد الحرب العالمية الثانية - دخل اللسانيون في حال دفاع عن ذواتهم ، وعما حصلوا من معارف جديدة . وكان مهمهم أن ينسجوا هذا الجديد مكاناً في سياق ثقافي غير مؤات ، يشعر فيه القاسمون على أمر علوم العربية ، من أفراد أو مؤسسات ، باكتفاء ذاتي لا يحتاجون معه إلى مزيد أو جديد ، ويرون في كل ما يروجه اللسانيون المحدثون ضرباً من البدع المحدثات . حينئذ كان من البدهي أن ينصرف نشاطهم البحثي إلى غايتين هما : الجدل مع التراث اللغوي العربي ومن ينصبون أنفسهم حافظة له وحراساً عليه ، ثم تقديم اللسانيات ، أو ما يطلق عليه « علم اللغة » ، إلى جبهة الباحثين والمتخصصين في علوم العربية تعريفياً بها ، وإقناعاً بجودها وما ينباط بها من آمال . ومن البدهي أيضاً أن الغايتين كليهما قد ارتبطتا معا بأوثق رباط ، واعتضدنا برافد آخر من روافد النشاط اللساني تمثل في قيام نفر من جيل الرواد اللسانيين ومن جاء بعدهم بترجمة بعض الأعمال اللسانية الأوروبية أو تعريبها . ولن نعرض الآن بتفصيل القول في تقويم أثر هذه الترجمات أو المعربات ، فقد وقع أكثرها - على أهميته

ودوره المقدر - دون المراد من حيث عدده وقيمه وتنوعه وقدرته على البيان . ومن نافلة القول أن نقرر أن اللوم في ذلك لا ينصرف إلى المشتغلين بعلوم اللسان وحدهم ، بل ربما ينصرف بقياس الأولى إلى منظومة التصورات والسياسات الثقافية والعلمية التي تحكم نظرة المؤسسات الرسمية والأكاديمية إلى الترجمة ودورها في التحديث العلمي . ومن عجب أن يفتن أسلافنا إلى خطر هذا الأمر منذ عشرات القرون ، وأن يأخذ النصيب الأوفى من السياسة التعليمية لدى محمد علي قبل قرابة قرنين من الزمان ، ثم تكون هذه هي نظرتنا إلى القضية وقد انصرم القرون العشرون أو كاد . وعمل أي حال فإن تقويم الترجمات اللسانية يحتاج إلى كلام شديد التحصيل والتفصيل ، ولعلنا نعود إليه في مقام آخر .

لذلك يمكن أن نرصد - من موقع « نقد الذات » - كثيراً من مظاهر القصور في حركة البحث اللساني العربي ، ترتد أسبابها إلى ما يصاحب الجديده الوافده في العادة من تيب له أو انهيار به ، ومن عجز عن ملاحظته في تطوراته السريعة المترادفة ، وتعصب مدرسي ملازم لتعدد الانتهاآت واختلاف المذاهب ، وتهاافت غير القادرين من ذوى المواهب المحدودة على الانتساب إليه ، ومقاومة البيئات العلمية المحافظة له ، وشك المشتغلين به في قدرتهم على تغيير التصورات الراسخة ذات الهيمنة والسلطان الذى لا يتحلحل على البنى الفكرية والعقدية عند المحافظين . ويزيد الأمر صعوبة وعسراً بالنسبة للثقافة العربية ما تشكله المسلمات الكابحة للعقل الناقد بصفة عامة ، وما يتفصل بعمل هذا الحقل في المجال اللغوى بصفة خاصة .

من هنا لم يكن عجباً أن تستغرق اللسانيات العربية همومها وأشغالاتها العلمية التي حدثت من فاعليتها في تشكيل ثقافتنا المعاصرة . وقد أنتج هذا كله عدداً من مظاهر الخلل في التأليف اللساني . وكاتب هذه الدراسة حين يرصد أبرز هذه المظاهر يرى لزاماً عليه أن يستيقظ الأنظار إلى أمور : منها أنه هو نفسه واحد ممن يشرفون بالانتهاآت إلى حزب المشتغلين باللسانيات التي هي عنده أخطر العلوم الإنسانية مطلقاً ، والقيمة على دراسة اللغة التي هي محل عمل العقل ووعاء معارفه ؛ ومنها : أن هذا الانتهاآت يسرته من القصد إلى غمط هذا العلم والمشتغلين به حقهم ودورهم في الثقافة العربية المعاصرة ، وأن من هؤلاء أساتذته الذين عاصروه وفيهم رفاقه وتلامذته من ذوى الفضل الذى لا يجحد ؛ ومنها أنه هو نفسه أيضاً لا يرى عمله ونتاجه من مظهر أو آخر من مظاهر القصور والخلل التي يعدها ؛ ولا يزعم الكمال لنفسه إلا من افتقده ؛ لهذا كان هذا الرصد نوعاً من الحوار مع النفس وبين أهل البيت الواحد ، سعياً لكمال منشود بصدق النية وإخلاص العمل .

ونأخذ الآن في ذكر ما نعهده مظاهر للخلل في المكتبة اللسانية العربية فنقول :

الثالث : أن اللسانيات العربية لم تتصد للمشروعات القومية الكبرى ، ولم يستطع المشتغلون بها أن يفتحوا المؤسسات العلمية والثقافية المعنية بجدوى إنجاز الأطلس القومي للهجات ، أو كتابة تاريخ اللغة العربية (أو المعجم التاريخي لها ، وذلك أضعف الإيمان) ، أو إصدار ترجمات معتمدة يتولاها شيوخ هذا العلم لأمهات المراجع والمصادر اللسانية الحديثة . وكان حربيا بالتأليف اللسان - لو انتحى هذا المنحى - أن يغير كثيرا من مظاهر الاضطراب والخلل ، لا في مجال اللسانيات فحسب ، بل في علوم كثيرة أخرى ، كعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الثقافات ، ودراسات الأدب الشعبي .

الرابع : أن الترجمات التي صدرت لأعمال لسانية غربية حكمها في كثير من الأحيان طابع الاصطفاء ، أو المصادفة ، أو إيثار السهولة ؛ كما أن كثيرا منها يكابد مشقة السيطرة على الفكرة في أصولها ، وإحكام العبارة عنها في صياغتها العربية . وحسبك أن كتاب « سوسير » لم يعرف الطريق إلى العربية إلا بأخرة من الزمان ، وأنه حين أذن الله بذلك دخل العربية في ترجمات ثلاث دفعة واحدة ، فتفاوتت فيها بينها تفاوتاً ظاهراً . واكتفى القادرون منا بالرجوع إلى أصله الفرنسي ، أو إلى ترجمته في الإنجليزية . وكان حربياً بنا أن يكون أول ما ينبغي نقله إلى العربية ، وأن يتصدى لذلك شيخ من أولى العزم والراسخين في العلم .

الخامس : أن كثيرا من النصائيف اللسانية هي ترجمة أشبه بتأليف ، أو تأليف أشبه بترجمة . وفي مثل هذه الأعمال إثم كبير ومنافع للناس ، بيد أن إثمها - فيما نرى - أكبر من نفعها ، لما تنطوي عليه في الغالب من تعفية على الأصول ، وتشويه لها ، ومن عقد الصلة بين الأفكار لأدن سلاسة ، واستفزاز لها من سياقها العلمي والثقافي على نحو يجعلها غير منتجة أو فاعلة ، ومن تلفيق ظاهري أكثر الأحيان بين معطيات العلم الوافد والعلم الموروث .

ذلكم هو حاصل القول في « نقد الذات » ؛ فماذا عن الشق الثاني من القضية ؟

٣ - القول في « مكاشفة الآخر » .

أما وقد قضى الله في أمر اللسانيات العربية بما هو كائن ، فلم يكن بدعا من الأمر أن يتجرد للإفادة من علوم اللسان طائفة من المشتغلين بدراسة النص الأدبي من أهل النقد . وقد رأى هؤلاء ما أحدثته اللسانيات من ثورة شاملة في الدرس الأدبي الأوربي خاصة ، وفي العلوم الإنسانية بعامة ، وعانوا ما أنتجته من آثار علمية لا يشبهها إلا نتائج الانقلاب الصناعي في تاريخ أوربا الاقتصادية . بيد أنهم تطلّعوا إلى اللسانيات العربية وعطائنها المرتقب في دراسة النص الأدبي فلم يظفروا منها بطائل ، ولم يسعدهم أهلها على تحقيق غايتهم ، والجواب عما

المظهر الأول : هو اشتغال هذه المكتبة على كم هائل من « المقدمات » أو « المداخل » إلى علم اللغة أو اللسانيات (أو الألسنية أحيانا) لا يكاد يمتاز بعضها من بعض من حيث الغاية التي تنتصب لتحقيقها وتكييف بنية « المدخل » أو « المقدمة » على نحو تتحقق به الغاية . ومن ثم فقد جاء المحتوى العلمي فيها ملكا مشاعا بين كاتبها ، وانتفت مظاهر التفرد والخصوصية . وليس أكثرها إلا استجابة آنية لمطلوبات المقررات الدراسية في الجامعة ، وتلبية آنية لحاجات الطلاب ، مع ما يفرضه ذلك بالضرورة من تنازلات وتضحية بأشراط الجدوية والصرامة العلمية الواجبة .

وصحيح أن حركة التأليف في « المقدمات » و « المداخل » اللسانية لم تتوقف إلى يوم الناس هذا ولن تتوقف ، ولكن الأمر فيها يختلف عما هو الحال عندنا بملاحقتها الدائبة لتطور العلم ، وتنوع الغايات المشتقة من التأليف ، والصياغة الخصبية والمنتجة لحقائق العلم ، وتنوع الانتهاءات المذهبية والمدارس اللسانية . وأين نحن من هذا كله فيما كتبنا ونكتب من مداخل أو مقدمات ؟

الثاني : عجز اللسانيات العربية - لا سيما في العقود الثلاثة الأولى من نشأتها - عن أن تعكس خريطة شاملة للمدارس والانجهايات اللسانية الحديثة في أوربا . وقد كان هذا وفاء من روادها الأوائل لا لتزامهم المدرسي . غير أن هذه الخريطة كانت - وما تزال - معقدة إلى حد كبير . وأنت إذا قرأت كتب رائد اللسانيات العربية الأولى أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس رحمه الله وجدت عبارات يخطئها الحصر من مثل قوله : « ويرى علم اللغة الحديث كذا » ، أو « في رأي علماء اللغة المحدثين كذا » . ومن هنا استقر في روع جيل الخائفين من أمثال أن « علم اللغة الحديث » علم واحد ، وأنه منظومة متجانسة من المقولات والتصورات يكاد يضيئ الخلاف حول أسسها المنهجية ، أو ينتفى ، وأن التمتين إلى هذا العلم إنما يصدران عن رأي واحد في المشكل الواحد . وهكذا انطلق كثير من أبناء جيلي ونحن جاء بعدنا ليرصموا أغلقة كتبهم . سائلهم بعنوانات من مثل : « كذا في ضوء علم اللغة الحديث » ، حتى إذا فنشت في أكثرها لم نجد إلا طائفة من المقولات التي تلقاها أصحابها بالقبول ، ورأوا فيها مسلمسات ومصادرات علمية لا تقبل الجدل ، لا تنمائها إلى ما يسمى بعلم اللغة الحديث ، على حين أن أكثرها هو من الخلافات بين أهل العلم من أتباع الانجهايات والمذاهب المختلفة .

وهكذا كانت كتب الرواد التي وصلتنا ببعض المدارس اللسانية في الغرب حجابا - في الوقت نفسه - بين من جاء بعدهم وسائر المدارس اللسانية الأخرى ؛ وما كان ذلك عن خطأ من أساتذتنا ، ولكنه قعود الهمة والاستكانة العلمية من الخائفين .

أخرى إلى زملائنا من المشتغلين باللسانيات العربية ؛ فصلاح أمرهم يصلح إن شاء الله خلق كثير . لقد قام جيل الرواد من اللسانيين بمهمة تاريخية كبرى ، ولكنه ، ومن أسف في كثير من الأحيان لم يستطع أن يصنع على عينه جيلا من الباحثين صلاب الأعواد ، الحراص على الدرس والتحصيل والتجويد ؛ خلف من بعدهم خلف لم يقوموا بعلمهم ، وكثير منهم - إلا من عصم الله - أضاع الموروث وقصر في تحصيل الوافد ، فأخرجت الجامعات العربية كثرة كاثرة من الرسائل الجامعية ، تقصر عن تحقيق ما هو معلوم من شروط البحث العلمي بالضرورة . ومع ذلك تخرج هذه الرسائل وقد ذبلت بقائمة طويلة من المراجع الأجنبية ، ينوء القليل منها بأفهام العصبه أولى القوة ، ورصعت تضاعفها بالمصطلحات الأجنبية وأعلام الفرنجة على نحو ظاهر الدعوى ، وإن من أصحابها - وقد عشت بين ظهرانيهم ربع قرن أو يزيد - من إذا سيم قراءة جملة واحدة بلغة أجنبية سياره في كتاب مدرسي لأعنته ذلك ؛ فما بالك بمصنفات اللسانيات المعاصرة ؛ وما أدراك ما هي ؟

أُن لعلم اللسان والنقد ، والحال على ما ذكرنا ، أن تجتمع وتتآزر على تحقيق المراد من دراسة النص الأدبي وهو أخطر مظاهر التشكيل اللغوي وأبعدها أثرا ؟ لقد أصبح النص الأدبي كجالس فيها بين كرسيين ، على مايقول الفرنسيون في أمثالهم ، بين تفریط قوم وجرأة آخرين . وما أحسب الأمر مستقيما على الجادة إلا إذا أخذنا أنفسنا وطلابنا بالجد الصارم ، وأما - لسانيين ونقادا - بأن قيمة كل امرئ منا ما يحسنه ؛ فكلانا واقف على ثغرة من ثغور العربية هو عنها مسئول . ونحسب أن الإبداع الأدبي في العربية هو أجل من أن نضيقه بين جمود يضع الباحث به أصابعه في آذانه ، ويستغشى ثيابه ، وحادثة زائفة تقوم على أحلاط من المعارف لا يمسكها قوام ، وعجلة ظاهرة في اعتراف الأمور ؛ إذ ماذا يبقى لنا - نحن الذين شرفنا الله بالانتساب إلى العلم - إذا أحيينا العاجلة ، وآثرنا ما يذهب جفاه من الزيد على ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ؟

يجيك في صدورهم من مسائل ، فكان أن هبط كثير منهم بالمطلات على ميدان اللسانيات ، فجاسوا خلال الديار فوجدوها خلاء أو ما يشبه الخلاء ؛ ومن ثم أصبح جميعهم لسانيين بالهواية أو الحق الإهني في ساعة من نهار ، وصنفوا في مسائلها أنحاء من التصنيف ، استشرت فيها عدوى التأليف بما يشبه الترجمة ، والترجمة بما يشبه التأليف .

والغريب ، وما عاد شيء في هذا الزمان بمستغرب ، أن تقوم كتب ورسائل برمتها على مفاهيم لسانية مغلوطة ، يفتقد أصحابها أوليات المعرفة بطرق التحليل اللغوي ووسائله ، ثم يكون لها من ذبوع الذكر وبعد الصيت ما يكون ، ويتلقاها بالإطراء قوم يظهرون العلم بعظائم الأمور وهم عن صفارها غافلون ؛ بل إن من الرسائل العلمية ما يقوم على إعمال طرق تحليلية عاجزة أو مناقضة لما ينتصون لتحقيقه من غايات علمية ؛ ومن ثم تراهم يكتبون تحت أخطر العنوانات أهون القول .

لقد اتخذت ألقاب الأسلوبية والبنوية وما جرى مجراها سردابا خلفيا لافتحام معقل أخلاء أهله فكان بالنسبة لمفحميه كارض التيه ؛ ذلك بأن فحص النص الأدبي بالطرق الأسلوبية التقليدية ، أو بوسائل الأسلوبيات الموسعة ، أو بالاسترشاد بمقولات اللسانيات واستمداد نماذجها ، إنما يتطلب تمكنا من أدوات التحليل اللسان على مستوياته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، يتأهل على أهل العجلة والتسرع . وإن لأعلم علما ليس بالظن أن العلم لا يمتنع على من أخلص في طلبه ، وأن اللسانيات ليست كهنتا وطلاسم تتأهل إلا على من يملك كلمة السر . بيد أن هذا العلم العزيز الجانب لا يتبل نفسه لمن أراغ بعد الصيت وحسن الاحدونة بأقل الجهد وأيسر المثونة . وليس هذا منا قولا مرسلا بلا دليل ؛ فإن عندنا من الشواهد ما يضييق عن سرده هذا المقام ، ولقد عرفنا في مقام آخر ببعضها وأعرضنا عن كثير .

وإذا كانت لنا من كلمة خالصة لله والعلم فإننا نتوجه مرة

سعد مصلوح